

نهاية البداية

فاروق حسن السيد

في اللحظة التي طرق فيها الباب ، اكتنفه اعتقاد جازم بأنها سوف تعنفه . ولم يكن ذلك الاعتقاد وليد ظروف طارئة ، بل كانت تلك هي عاداتها كل مساء . فما إن تفتح له الباب وتستقر قدماه على بلاط الصالة حتى تبدأ نوبة اللوم والتقريع . وكان دائماً يتجاوز عن كل الإهانات ، ويظل في مكانه دون حركة إلا النظر إلى مقدمة حذائه القديم .

وحلت إليه تلك التساؤلات صداعاً شديداً ، وأحس بأن شيئاً غامضاً - لكنه شديد الإيلام - يوشك أن يتم ويتحقق كلما مضى الوقت .

وعندما مد يده ليطرق الباب في محاولة أخيرة يائسة ، شق السكون صرير باب مجاور يفتح ، وبرزت منه عجوز مرهقة ، سرعان ما انثال الكلام من بين أسنانها حتى أغرق المكان .

وبعينين خابيتين كان ينظر إلى التجويف الذي خرجت منه الحكاية ، والتي كانت تثير اهللح والوجوم . ذلك ؛ لأنها خلعت من أي شعاع للشمس ، فقد حدث كل شيء في شارع كئيب ، ولم يكن في وسع المرء أن يجد أية شخصية مبتسمة .

كم من الوقت ظلت العجوز تقذف بالكلام الذي اخترق الأذنين وترك حفراً عميقة في القلب؟! . . إنه لا يستطيع التحديد ، فالساعة التي كانت تزين معصمه ذات يوم باعها مع الكثير الذي باع منذ فصل من عمله . لكن المؤكد هو أن أحداً لو رآه في تلك اللحظة وقد انحنى رأسه ، وتشابكت أصابعه فوق بطنه لظن أنه يصلي ، لكنه كان . . . يبكي .

وجمعت العجوز أطراف شاها حول جسدها ، وعندما أغلقت بابها خلفها شعر كأنه يسقط في قاع هوة بلا قرار ، وهو في غمارها يهتر ، يدوب ، يتلاشى .

وفي آلية استدار ، وتحطت قدماه الحفر المنتشرة على السلم بصورة آلية أوجبتهما العادة . وصفعه التيار البارد وهو يترنح أمام الباب الخارجي ، بيد أنه كان واثقاً من أن أحداً لا يلحظه .

ذات مرة قال لها إنه (سيحاول) الإفلاع عن المخدرات ، بيد أن تلك العبارة كانت تفتقر إلى الصدق ، رغم أنه كان يقنع نفسه دائماً بأن كل شيء سيكون في يوم ما على ما يرام ، وسيأتي الوقت الذي يقول لها رافع الرأس : - لقد انتهى كل شيء ولا داعي للمزيد من التفكير فيه .

كان ذلك هو حلمه المستحيل . فهو يدرك بصورة حادة أن المخدر قد تمكن منه إلى الحد الذي أصبحت معه حياته كلها معلقة بمجرد (شمة) واحدة .

مرة ثانية طرق الباب وهو يشعر بالانقباض ، لم يكن للمخدر الذي يسري في جسده كله القدرة على التقليل من انقباضه . لقد لازمه ذلك الإحساس منذ الصباح وقبل أن يحصل على النقود التي اشترى بها ذلك السم . ثم ما لبث أن فارقه ، وها هو يعاوده بعد أن طرق الباب مرة ثانية وثالثة دون أن يسمع وقع أقدامها وهي تقترب خلف الباب المغلق .

ولأول مرة يلاحظ من خلال زجاج الباب أن شقته مظلمة وأن مصباح الصالة مطفاً على غير العادة . ورفع حاجبيه في محاولة صادقة للفهم ، ثم نظر إلى السلم ليتأكد من أن المخدر لم يغلبه ويجعله يطرق باب شقة أخرى .

وشعر بالخير من كل ما يحيط به . ترى : هل حل اليأس بالزوجة التعسة فأثرت الرحيل ؟ ، وماذا عن الابن . . ابنه . . ذلك الشيء الساحب الذي لم يتجاوز السنوات الخمس والذي يبدو كزهرة ترتعد . . . هل . . .

قصة قصيرة

برز فجأة أمام السيارة من أحد المنحنيات الجانبية .
ومرت ساعة . . وانتهى سيل الأسئلة . وعندما
راح يوقع على الأوراق لم يكن يشعر بالذنب بعد أن
تبلدت مشاعره إلى حد أنه وجد في نفسه الجرأة على الابتسام .

وانتهى كل شيء ، وغادر الغرفة ووجهه خالٍ من أي تعبير ، وهو يذكر
الآن جيدا أنه أغلق الباب خلفه . وقد لا يكون لإغلاق الباب معنى محدد ،
إلا أنه فعلها حتى لا يستمع أحد إلى الحديث الخامس الذي دار بينه وبين
الرجال الأربعة الذين كانوا في انتظاره ، والذي لم يكن يعرف منهم سوى
الرجل صاحب الوجه الحاد . . ولا يدري الآن لماذا ذكره وجهه هذا
الرجل بأجزاء اللحم التي يبيعها القصابون والتي لا تصلح إلا
طعاما للقطط والكلاب .

وهو يذكر أيضا تلك المشادة الحادة بينه وبينهم عندما
سلموه خمسين جنيتها . كان عذرهم الوحيد الذي
يسوقونه على الدوام هو أنه لم يخسر شيئا بإدلائه
ببضعة أسطر تنجي السائق من ظلام السجن ،
بيد أنهم كانوا مخطئين . لقد كان من المحتم عليه
أن يحصل على مبلغ يزيد على الجنيئات
الخمسين ، فأسعار المخدر ترتفع بشكل جنوني ،
ومطالب أسرته الصغيرة لا تنتهي ، ولا مصدر آخر
للرزق .

كانت تلك هي الخطوط العريضة لأحداث اليوم ، وإن
كانت هناك ثمة سطور بيضاء تفصل بين الحوادث ، فقد جاءت
الجرة العجوز وملأتها بمداد حزين أسود ، جعله يشعر بأنه يسقط في
قاع هوة سحيقة ، انتشرت فيها صرخات طفل لم يتجاوز الخامسة وهو
يسلم الروح مضرجا في دمائه .

وببطء قادته قدماه من شارع إلى شارع ، وصورة طفله عملاً الفراغ حوله .
وعلى الجسر توقف وأخرج ما تبقى في جيبه من نقود . لا شك أنها كانت
ستسأله عن مصدرها . . ترى أين هي الآن . . لعلها تجلس دون فهم محذقة
في ملابس وحيدة الذي داهمته سيارة مجنونة رحل بعدها إلى وديان
الصمت . . كم كان فرحه عندما سمع بكاءه لأول مرة . . لقد طاف بجميع
أقاربه وأصدقائه وأخبرهم مهلاً بمقدمه . . قال : لقد رزقت بغلام جميل . .
قالها بحرارة وافتخار يوجبها الموقف .

وبوجه جامد خالٍ من أي تعبير أفلت النقود من بين أصابعه ثم صعد
إلى سور الكوبري ، ودون أن ينظر تحته ألقى بنفسه . وجرفه التيار وهو
يتقلب حول نفسه متجها إلى القاع الذي انحدر إليه في حياته ومماته .

وتبين وهو يسير أن حركته لم تعد دقيقة محكمة ولم يكن ذلك بالأمر
الجديد عليه منذ أن أحاطت بعنقه أنشودة الإدمان . ولم يعر الأمر اهتماما
فليس للجسد أية أهمية ما دام ذهنه صافيا ، يستوعب بشكل مستغرب كل
أحداث الظهيرة .

نعم . . إنه يذكر أنهم سألوه :

- هل كنت موجودا لحظة الحادث ؟

بالضبط . . كان ذلك هو نص السؤال
الذي وجه إليه . والشئ الوحيد الذي كان
مزعجا في تلك اللحظة هو شعوره المخيف
بحاجته إلى المخدر .

- نعم . . كنت أجلس بجوار السائق .

وتتابعت الصور . . وكان من السهل عليه ترتيبها حتى
أصبحت شيئا منظورا ، إلا أن أبرزها كانت صورة الرجل
المسمن ذي الملابس الرسمية .

- جاء في أقوال السائق أن . . .

وتوالى الأسئلة . . .

وكان واضحا أن الأمر سيكون غاية في الدقة والتعقيد ، ولا بد
في معالجته من بذل عناية خاصة ، ولم يكن ذلك بالشئ
الجديد عليه . فقد سبق له في مرات عديدة أن جاءوا به
من المقهى ليقتف في مثل هذا المكان ، تحيط به الملابس
الرسمية ليؤدي بشهادته في حادث ما ، كان ضحيته
شخص ما .

كانت تلك مهنته الجديدة . . مجرد شاهد

زور بعد أن فصل من عمله بعد إدمانه

للمخدرات وغيابه المتكرر وتصرفاته السيئة مع العملاء .

والغريب ، أنه في زمن قياسي تعلم كل حيل الخروج على القانون
للحصول على النقود ، يحميه من الموت أو السجن ذلك الاستعداد الخاص
الذي يجعل القطط تقفز من ارتفاع شاهق دون أن تصاب بسوء . وفي ذلك
اليوم ، لم يدرك بذهن رجل الشرطة أنه حيال شاهد مأجور كان وقت وقوع
الحادث يجلس وسط زوبعة من الدخان في مقهى حقير بجوار مدمن
منفلس . ولو دار ذلك الحاضر بذهنه لضيق الحناق على الشاهد ، ولسأله عن
شكل الغلام القليل وطول قامته ولون ملابسه ، لكن شيئا من ذلك لم
يحدث ، وسار كل شيء في مجراه العادي ، وخرجت الإجابة من فمه بطريقة
طبيعية - نتيجة التمرس - مؤكدة أن السائق لم يخطئ ، وأن الغلام هو الذي

انتهى سيل
الأسئلة ووجد
في نفسه الجرأة
على الابتسام!

انتهى سيل
الأسئلة ووجد
في نفسه الجرأة
على الابتسام!

في الأدب

من
مظاهر
الاستعمار
الفكري

للأستاذ عمر الدسوقي (*)

لقد كان من أول ما صوبه المستعمرون إلى أدبنا أنه ثمرة عقلية ضحلة عقيمة مجذبة الخيال نمت فوق رمال الصحراء الرتيبة المناظر، ومن ثمَّ فهو أدب يخلو من العمق وسعة الخيال وامتداده. قال بهذا رينان المستشرق الفرنسي عدو الإسلام، وردده بعده من غير وعي أو مناقشة بعض من تزعموا الحركة الأدبية في مصر؛ يقول الأستاذ أحمد أمين في «فجر الإسلام» ص ٤٦، ٤٧: «إن خيال العربي محدود وغير متنوع، وقلما يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته، وحياة خيراً من حياته يسعى وراءها؛ لذلك لم يعرف المثل الأعلى لأنه وليد الخيال، ولم يضع له في لغته لفظة واحدة دالة عليه».

ولقد ناقشت هذا الموضوع بإسهاب في كثير من كتبي خصوصاً «في الأدب الحديث» الجزء الأول عند الكلام عن القصة، وفي «الفتوة عند العرب» في الفصل الذي عقده «للعقلية العربية» ولقد قلت في بعض مناقشتي لهذه الفرية: «نسي الأستاذ أحمد أمين حين أنكر أن العرب عرفوا المثل الأعلى أو أشاروا إليه قوله

من
الأسف أن تتسرب

سمات الوثنية إلى أقلام بعض

كتابنا فتجري بها دون

وعبي

تعالى ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وكتبنا يعلم أن القرآن نزل على عرب جاهلية ليهديهم سواء

(*) عن كتابه «دراسات أدبية» ط ٢ دار نهضة مصر ص ٨٨ ٩٣

في عشرين مقالة في «الرسالة» تحت عنوان «جناية أحمد أمين على الأدب العربي». وأشاد أدباؤنا بالعقلية اليونانية الوثنية الأسطورية الخرافية، ولا يزالون يلحون علينا إلحاحاً شديداً حتى نؤمن بما يقولون.

ومن الأسف أن تتسرب بعض سمات هذا الأدب الوثني إلى أقلام كتابنا فتجري بها دون وعي، ويمر عليها القارئ دون أن

يخس برجفئة؛ استمع إلى عمر فاخوري، أديب لبنان الكبير، في كتابه «الفصول

الأربعة» ص ٢٥ يقول: «كان له إله واحد عكف على عبادته وعلى خدمته وكان

الأدب إله المعبود»، وجاء في مجلة «العروبة» العدد ٣١ من السنة الأولى ص ٨ «... والسوبرمان هو الإنسان الأكمل والأسمى الذي يعلو البشر بفكره ويلاحق الآلهة بسموه... إلخ» وفي مجلة «أبولو» العدد ٤ من السنة الثانية ص ٢٤٧ «تريد لنفسها أمراً ليس في طاقة البشر، وتبحث وراء صورة من (إيثوبيا) طوبى أو كبير الآلهة والآداب، وإن لم تجده عادت تتأسى ببعض صغار الآلهة كأبولو إله الفن».

وفي مجلة «الرسالة» العدد ٣٤٨ ص ٣٦٢ «إنكم تكونون قبل الزعامة أناساً كالناس ثم تصبحون بعدها آلهة كالآلهة».

وفي مجلة «الثقافة» العدد ٦٢ السنة الثانية «وهل ما تستطيعه الأرباب في بسطة سلطانتها وشامل قدرتها، والملائكة في طهرها وصفائها، يقوى عليه الإنسان في فئائه وضعفه».

ويقول علي محمود طه في قصيدته «ستالينجراد»:

أقول أبطال الوغى أم جنة وأقول آلهة أم الأقدار؟

السبيل، وأنهم فهموه وتدبروه وأمنوا به وأنهم عرفوا المثل الأعلى الذي أشار إليه، وأما أنه كلمة واحدة أو كلمتان فلا يقدم في القضية ولا يؤخر

فلا الكلمة الواحدة تدل على عمق الخيال ولا الكلمتان

تدلان على قصوره. وهذا الكلام وللأسف صدى

لما يقتربه الشعوبيون على العرب وما

يقدمونه للاتقاص منهم

والغض من شأنهم قديماً

وحديثاً.

وترتب على هذا أمور كثيرة آمن

بها بعض أدباؤنا وألحوا علينا في اعتقادها. من

ذلك: التشكيك في الأدب الجاهلي وقيمته، نقلاً عن

بعض المستشرقين مثل مارجوليوت المستشرق اليهودي الإنجليزي

المتنصر؛ بدعوى أن جاهلية العرب لم تشابه جاهلية اليونان، تلك

الجاهلية المثالية في رأيهم، إلى غير ذلك من الأمور التي أثارت ضجة صاخبة

في حينها وانبرى للرد عليها كثيرون؛ من خيرهم الأستاذ محمد الغمراوي في

كتابته «النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي» والسيد محمد الخضر حسين

شيخ الأزهر - رحمه الله - في كتابه «نقض كتاب في الشعر الجاهلي».

دون وعي:

وقد ناقشنا قضية الشعر الجاهلي وما أثير حوله مناقشة علمية مدعومة

بالأدلة اللغوية والأثرية في كتابنا «النايعة الذبياني» وفي كتابنا «الفتوة عند

العرب». ولقد تبعه الأستاذ أحمد أمين في سلسلة مقالات طويلة بعنوان

«جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي». ونادى بأن هذا الأدب يجب أن

يوضع في متحف، لا أن يتدارسه أبناؤنا، ورد عليه زكي مبارك - رحمه الله -

وهكذا شاعت سمات هذا الأدب على ألسنة أدبائنا من غير وعي أو

إدراك نتيجة تمجيد هذا

الأدب الوثني الخرافي

الأسطوري الذي امتنعت

فيه آلهة اليونان، واتصفوا

بصفات البشر في ضعفهم وحقدهم

وعجزهم؛ حتى إن أفلاطون اليوناني أبى

في جمهوريته أن يدرّس مثل هذا الأدب لفتيان

اليونان؛ كيلا يشوه عقائدهم ويجعلهم يكفرون بهؤلاء

الآلهة المتباغضين المتنافرين الذين ينحطون إلى أدنى مراتب

البشرية. وما مجدته أوروبا في مستهل نهضتها إلا لأنها كانت

مفتقرة إلى ميراث أدبي تركن إليه وتستقي منه، ثم نفرت منه نفوراً

شديداً، وثارت عليه ثورة عارمة في أخريات القرن الثامن عشر وأوائل القرن

التاسع عشر حين قامت الحركة (الرومانتيكية) الإبداعية التي تعدو إلى الأدب

الذاتي والتاريخ القومي، والتملى من سفر الطبيعة الزاخر بأروع آيات

الجمال، بدلاً من العكوف على هذه الآثار الوثنية التي عفى عليها الدهر،

والتي تحد الفكر وتكب الخيال وتقيت العاطفة.

استعمار فكري:

وكان من آثار هذه الخرافة اليونانية وتمجيد هذا الأدب الأسطوري أن أخذ

بعض نقادنا وأدبائنا يشيد بابن الرومي وشعره؛ لا على أساس تفوقه

الشعري، ولكن على أساس أصله اليوناني، وانتحلوا لذلك أسباباً لا تثبت

للمناقشة الصحيحة، ومن هذا طول نقسه في قصائده مع أنه من أسباب

ضعف شعره وهلهة نسجه، ودنوه من النثر العادي. وكان من أسباب

خمول ذكر ابن الرومي في عصره وبعد عصره هو هذا النهج الذي سلكه في

شعره من إطالة القصائد إطالة ذهبت برواء الشعر وطلاوته، والعرب يؤثرون

الإيجاز البليغ. وإذا

قيس شعر ابن الرومي

بشعر المتنبي العربي الفح

مثلاً وجدنا البون شاسعاً في

الفكر والأداء والخيال والعاطفة وهي

مقومات الشعر، وتبين لنا بجلاء تفوق

المتنبي وتسنمه ذروة البيان والشاعرية.

بيئتنا لم تتلوث بالمخازي التي تتناولها

الآداب الغربية وبدأت تشيع لدى

بعض الكتابات

عندنا

ومن مظاهر ذلك الاستعمار الفكري في الأدب

تقليدنا للمذاهب الأدبية الأوروبية من غير ما حاجة داعية إلى

اتخاذ تلك المذاهب وتناجها. فالمذهب الأدبي حالة نفسية تعترى

أمة من الأمم نتيجة عوامل اقتصادية وعقلية واجتماعية، يجيش في

صدور أبنائها فكرة وعاطفة، ثم يعبر عنه من يملكون أداة التعبير، فيجدون

لأقوالهم صدقاً في نفوس معاصريهم واستجابة لدى شعوبهم؛ لأنهم إنما

يعبرون عما يختلج في أذهانهم ويعجزون عن الإفصاح عنه.

ولكن بعض أدبائنا لما غلبهم من مركب نقص شديد هاموا بتقليد

المذاهب الأدبية الأوروبية كل حسب ما يترأى له، وترى في أدبنا المعاصر

«رومانتيكية» حاملة واهمة غارقة في بحار الخيال، واجمة حزينة كئيبة تحبّر

آلامها وتزوّر عن مشكلات المجتمع ومآسيه وآماله وآلامه، وتجد رمزية

غامضة مبهمّة عجاء خرساء لا تفصح ولا تبين، وتجد واقعية متردية في

أوحال التشاؤم، تصور أحط النماذج البشرية واصطراع الغرائز، تثير الشهوة

وتحرض على الجريمة، وتلقن الكذب والخداع والضلال والنفاق من غير أن

توحي بكرهيتها أو النفور والاشمئزاز منها، وبذلك تعمل على تقويض

المجتمع، وبذر الشر في النفوس الساذجة، فتفعل الحوادث وتوهمها توهمها،

وتنسج على نمط الأدب الغربي الواقعي، أدب بلزك وزولا، وموباسار،

وهاردي، وموم. وإذا كان الأدب الغربي يعالج مشكلات واقعية خلفتها

البيئة المادية التي لا تعرف معاني الرحمة والمروءة والتجدة وإغاثة الملهوف

والأخذ بيد الضعيف، يصطرع فيها الناس اصطراع الذئاب الجائعة،

ويستجيئون لنداء

الغرائز الدنبا في شرة

عارمة فإن بيثنا لم تتلوث

بعد بكل هذه المخازي، وإن

وجدت فإن الحلول تأتي من ديننا

وتقاليدنا وطباعنا.

واجبنا أن يكون أدبنا مظهرًا لمشاعرنا

الحقة ومعبراً عن يقظتنا

لذكرها، وإن من

واجبنا في يقظتنا العقلية

والسياسية الراهنة أن نعمل في

جدّ ودأب وحزم على أن يكون أدبنا

مظهرًا لمشاعرنا الحقة، منبعثًا من أعماق

نفوسنا انبعاثًا طبيعيًا، يترجم آلامنا وآمالنا،

ويصور مجتمعتنا تصويراً صحيحاً لا مفتعلاً. كما يجب

علينا أن نجث هذا الأدب الملون بأصباغ الاستعمار، والذي

أنتجته نفوس ضعيفة استهواها سلطان القوى وجبروته وحضارته، ولم

تقع إلا على نفايات تلك الحضارة وخبثها، وإن ثلاثة أبيات قالها صعلوك

من صعليك العرب يرد على رجل عابه بالهزال ويقرر فيها مبدءاً من المبادئ

الاجتماعية العظيمة التي قامت عليها حياة العرب في جاهليتهم، وهو مبدأ

البر والإيثار خيرٌ من كثير مما نحتفي به من ذلك الأدب المتهالك الضعيف،

وذلك حيث يقول عروة بن الورد الذي ثنى عبد الملك بن مروان وهو في أوج

سلطانه أن لو كان ابنه:

ونجد سرالية تهيم بخزعبلات العقل الباطن

وترهات اللاوعي، تشذ عن كل تقليد وعرف، وتتنكر

لكل ما تقدسه الإنسانية وتحرس عليه، يزار على لسانها

الحيوان الجاثم في الجسم البشري، وهو حيوان لا رسن له ولا

رادع، تأثرت بفلسفة هيجل وآراء فرويد، واستوحيت منهج رامبو

ولوتريامو Lautreamout. وكم كنت أود أن يتسع لي الوقت لأسوق لكم

أمثلة من هذه المذاهب المتنافرة التي لا تعبر عن مشاعر الأمة وهواجسها

ورغباتها. والتي جاءت نتيجة التقليد الأعمى، شأننا في كل ما يتعلق

بالحضارة الغربية. والتقليد كما يقول الرافعي «لا يكون طبيعة إلا في الطبقات

المنحطة، وصناعة التقليد وصناعة المسخ فرعان من أصل واحد، وما قلد

المقلد بلا بحث ولا روية إلا أتى على شيء في نفسه من ملكة الابتكار وذهب

ببعض خاصيته العقلية».

بجسمي شحوب الحق والحق جاهد

وأنت امرؤ عافي إنائك واحد

وأحسو قراح الماء والماء بارد

أتهزأ مني أن سمنت وأن تــــرى

وإنني امرؤ عافي إنائي شركة

أقسّم جسمي في جسموم كثيرة